

قراءة في سورة نوح عليه السلام

دلالة الأحداث على الطبع الانساني

■ بقلم الأستاذ مصطفى محمد هديب

يُعنى علم النفس بالانسان، وهو علم يدرس النفس الانسانية في احوالها المختلفة، وينظر في بواعث السلوك الانساني وغايته، وكيف يتأثر بما يسمع ويرى! وينظر في احوال النفس: من الغضب والرضا والسرور والحزن، ويحاول هذا العلم ككل علم ان يقدم القواعد التي يستخرجها من ملاحظاته وتجاريه في ميدانه.

التي يشغل العلماء اهتمامهم فيه، لإصلاح ما يفسد من النفس الانسانية او يخرب سلوكها، ويؤدي بصاحبها الى الخسارة والانسحاب من المجتمع بمرض نفسي، او عقوبة جنائية او غير ذلك.

♦ هل في سلوك الانسان اتجاهات يمكن وصفها بأنها ثابتة؟

نعم - وهذا ما نريد ان تلفت النظر اليه في هذا المقال - فالقرآن الكريم يخبرنا عن

فالأمومة عاطفة مشبوبة وهي من اقوى الصلات الانسانية، فيها من الحب والايثار والتضحية والمعاناة الشيء العظيم، وقد يضحي الانسان «رجلاً او امرأة فيموت ليعيش ابناً او بنتاً له!.

هذه العلاقة ترى ايضاً في الحيوان ولا تحتاج الى برهان! في الحيوانات وحشية وأليفة، وفي الطير والزواحف وكل الأحياء. والتأثير في السلوك وتعديله من الأمور

على الطبع الانساني في قضية من اعظم
واهم قضايا الكون، واهل الارض خاصة،
وهي قضية الايمان بالله وعبادته وافراده
بهذه العبادة.

ولقد استجابت كل كائنات الوجود حية
وغير حية الى الاعتراف بوجود الله
سبحانه وتعالى، وجاءت بألوان العبادة
التي تستطيعها؟ يقول سبحانه وتعالى:
﴿تسبح له السموات السبع والارض ومن
فيهن وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن
لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليماً
غفوراً﴾ الاسراء: ٤٤ .

وفي آيات أخرى يذكر القرآن الكريم
اجناساً بعينها تسبح الله: ﴿ويسبح الرعد
بحمده والملائكة من خيفته﴾ ﴿وسخرنا مع
داود الجبال يسبحن والطير وكنا
فاعلين﴾١، وهكذا ذكر الرعد والملائكة
والجبال والطير ممن يسبح الله .

هذه أدلة على استجابة كل كائنات
الارض لعبادة الله تعالى وتسبيحه، اي
تذكره بما يستحقه وتترزه عن النقص..
ولكن بعض الناس لا يفعل كما تفعل
العجماوات او الجمادات، وكثير من الناس
ممن اعطوا العقول المحاكمة والحاكمة،
يرفضون عبادة الله، ويخسرون دنياهم
وأخرتهم.

وهذا مما قاله الانسان وهو يُدعى الى

انماط من التفكير والسلوك لها صفة
الثبات في النفس الانسانية في الافراد
والجماعات.

وهذه سابقة للقرآن الكريم، قبل نشوء
العلوم الحديثة في وصفه لأنماط من
السلوك ومحاولة تعديلها ترغيباً او ترهيباً،
وهو يستعرض اساليب مختلفة في تعديل
هذا السلوك، ومنها:

- البرهان العقلي.

- الترغيب والجوائز.

- التهديد والعذاب العاجل والآجل.

- نقل المستقبل الى الحاضر، في
محاولة لتبصير المخاطبين بما سيكون.

- بسط ما أصاب الأمم السابقة عندما
كذبت ورفضت الدعوة الى الله تعالى
وعبادته.

ويقص علينا القرآن الكريم قصة نبي
الله سيدنا نوح عليه السلام مع قومه في سورة
سميت بإسمه، واذا كانت السورة قد
استغرقت قصة نوح مع قومه، الا ان بعض
التفاصيل قد جاءت في سور أخرى يسند
بعضها بعضاً لبيان اوجه الصراع كله الذي
امتد (٩٥٠) عاماً!!.

ولكننا نركز قراءتنا وجهدنا ونظرنا في
سورة نوح، ففيها كفاية في دلالة الأحداث

عبادة الله سبحانه وتعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ❖ اجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ ❖ وَانْطَلِقِ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ❖ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا خِتْلَاقٌ ❖ هَذَا مَا قَالَهُ كَفَّارٌ قَرِيشٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، سورة ص: ٤-٧ .

لقد رفضوا ما جاء به الرسول ﷺ وقالوا: هو ساحر، وكذاب! وهذا الاتهام الباطل بدون برهان، هو من الضلال والإفك الشديد.

ورفضوا عبوديتهم لله الواحد الأحد وفضلوا عبادة الأوثان التي لا تضر ولا تنفع، وتواصوا بالمحافظة على هذه الأوثان والوقوف في وجه من يتهددها وكأنها مؤامرة ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ ويبررون رفضهم: أنهم لم يسمعوا بمثل هذه الدعوة، ويصفونها أنها اختلاق، أي كذب وافتراء!!.

ولا تجد في تصرفهم، ولا في أقوالهم شيئاً من العقل أو المنطق أو الحجة الفاعلة! وتشفق عليهم لما هم فيه من البؤس والشقاء والدفاع عن الباطل والتمسك به... ولم يكن قوم نوح عليه السلام بأفضل من أولئك الناس، ولترقب ما كان من أحداث.

يرسل الله سبحانه وتعالى نبيه نوحاً ﷺ إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ويحمل نوح عليه السلام تكليف الله إليهم ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ❖ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا﴾ ذلك هو ما جاء به كل نبي إلى أمته، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾.

فماذا كان موقف قومه؟

رفض قوم نوح ما جاء به من عنده، وظهروا من أشكال الرفض مظاهر شتى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ❖ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ❖ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَفْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾.

لا شك أن الشيطان قد استحوذ على هؤلاء القوم وأغلقت نفوسهم على كل سفة وشر، وطاشت عقولهم في متاهات الضلال وسدوا كل منافذ الخير والعقل، فلا يصل إليهم ما ينقذهم من النار.

جعلوا أصابعهم... فلا يسمعون، واستفشوا ثيابهم... فلا يرون... وأصروا على باطلهم... وملاً اعطافهم الكبر

﴿مدراراً﴾ وهي تدل على التكثير لتوحي للمخاطب ان الله يفرز الذنوب مهما عظمت، والله سبحانه يفرز كل شيء الا ان يشرك به.. ﴿ان الله لا يفرق ان يشرك به ويفرز ما دون ذلك لمن يشاء﴾ فهذا باب شرع للانسان ليلج منه الى رضوان الله ويفادر ذنوبه.

و ﴿مدراراً﴾ اي كثيرة الامطار، تلك الامطار التي تنبت نبات الارض، وتروي المحاصيل والدواب وتملأ الآبار وتروي العطشى!!

ليس ذلك وحسب.. بل ﴿ويمدكم بأموال وينين ويجمل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾!! سبحانه ربي ما أكرمه.. ويرفض قوم نوح ﷺ ذلك العرض!!

ويتأمل نوح ﷺ قومه، وما في سلوكهم من الضلال والسفه، ويعجب اشد العجب انهم لم يقدروا الله حق قدره، ولم يحسبوا حساب العواقب التي سيجدون انفسهم فيها، وقد رفضوا الايمان بالله وما اعطوا من نعم الله سبحانه وتعالى، فيخاطب نوح قومه: ﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً﴾ وقد خلقكم اطواراً ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً﴾ وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ﴿والله انبتكم من الارض نباتاً﴾ ثم يعيدكم ويخرجكم اخراجاً ﴿والله جعل لكم الارض بساطاً

القاتل!! فقد بلغ بهم السفه والجهل هذا المبلغ! وسدوا منافذ الادراك والوعي والتدبر إمعاناً في الشقاء!

♦ ما جاء به نوح ﷺ من الوعود:

النفس الانسانية ميالة بطبعها الى المنفعة.. ذلك جزء من الطبع البشري، والانسان يستكثر من الخير مهما كان في يده منه، وفي ذلك قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث﴾.

وعندما عرض نوح ﷺ على قومه ان يؤمنوا بالله تعالى ويعبدوه ولا يشركوا به احداً، دعاهم الى الاستغفار، وهو عبادة وطلب ودعاء والتجاء الى الله، واعتراف بالذنب الذي لا يغفره الا هو سبحانه، وقد جعلت على الاستغفار جوائز عظيمة، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فقلت استغفروا ربيكم انه كان غفاراً﴾ يرسل السماء عليكم مدراراً ﴿ويمدكم بأموال وينين ويجمل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾ نوح: ١٠-١٢.

ونحن نقرأ هذا العرض الشيق العظيم على قوم نوح ﷺ ليؤمنوا بالله تعالى، تلفتنا بعض الألفاظ: ﴿غفاراً﴾ و

◆ لتسلخوا منها سبلاً فجاجاً ◆

لعلها تلين قلوبهم لعظمة الله، وتديره الذي ينفع الانسان، فلا يحرك فيهم هذا العتاب ولا هذا البيان شيئاً!! وصدق فيهم قوله تعالى: ﴿ثم قست قلوبهم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله﴾ البقرة: ٧٢ .

◆ شكوى نوح عليه السلام:

ويشكو نوح قومه شكوى مرة فيقول: ﴿رب انهم عصوني واتبعوا من لم يزد ماله وولده الا خساراً﴾، لقد عصاه قومه وكان من حرّضهم الأغنياء المترفون! وهذه هي الظاهرة الثابتة في مقاومة الرسل عليهم السلام! ﴿وما ارسلنا في قرية من نذير الا قال مترفوها إنا بما ارسلتم به كافرون﴾ وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين﴾ سبأ: ٣٤-٣٥ .

ومن صور التحريض والمقاومة لرفضهم عبادة الله: ﴿ومكروا مكراً كباراً﴾ وقالوا لا تذرنا آلهتكم ولا تذرنا ودّاً ولا سواعاً ولا يفوت ويموق ونسراً! ويرفع نوح يديه ويدعو عليهم: ﴿وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾، ويستجيب الحق: ﴿مما خطيأتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً

◆ فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً! ◆

◆ حقائق وعبر:

أوضحت هذه السورة الكريمة من سمات الافراد والجماعات الانسانية كثيراً من الحقائق منها:

- ان الدعوة الى عبادة الله وافراده بها، تلقى معارضة ومقاومة من الأفراد والجماعات، بل وتتمدها الى التكذيب، وسب الرسل عليهم السلام والتهديد بالقتل وهذه ظاهرة ثابتة في المجتمعات الانسانية.. ﴿قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين﴾.

يتقدم -دائماً- المترفون الأغنياء الصفوف في رفض ما يأتي به الرسل، ويحرضون غيرهم على ذلك! وهي ظاهرة ثابتة أخرى في فئة معينة من المجتمع ﴿وما ارسلنا في قرية من نذير الا قال مترفوها إنا بما ارسلتم به كافرون﴾ سبأ: ٢٤ .

وما جاء في سورة نوح: ﴿واتبعوا من لم يزد ماله وولده الا خساراً﴾ عبر الراضون من قوم نوح عن مقاومتهم للهدى الإلهي بأساليب متشعبة من الرفض.. اغلقوا سمعهم، واغلقوا ابصارهم! فسدوا منافذ الوعي والادراك فلا تصل اليهم اقوال نوح ولا ينفذ شيء من الحق الى صدورهم وعقولهم كأنهم

وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون ﴿ فصلت: ٣٠، وفي وعد آخر: ﴿أنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ غافر: ٥١ .

وجاء الاسلام واختتمت به الرسالات، وكان رسول الاسلام ﷺ آخر الرسل، وجاءت معه معجزة القرآن الكريم وتولى الله سبحانه وتعالى حفظه، وهكذا بقي المنهاج الذي ارتضاه الحق لعباده ابيض ناصع امام العباد كلهم، حتى يرجعوا اليه .

ويبلغ عدد المسلمين ما يقارب (١٥٠٠) مليون مسلم الآن، وهم ربع سكان العالم تقريباً، والباقيون على ملل ونحل وأديان اخرى غير الاسلام، ولم ينته دور الاسلام في الارض، فلا بد لراية التوحيد ان تملأ في الارض على كل ما عداها في يوم قادم ان شاء الله تعالى.

ومما جاء في كتاب الله العزيز: ﴿اذا جاء نصر الله والفتح ♦ ورايت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ♦ فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان تواباً﴾، وقيل في نزولها: انها اجل رسول الله ﷺ، وما اوردتها هنا لذلك، وانما لما فيها: ﴿يدخلون في دين الله أفواجا﴾، ذلك امر آخر تولاه الحق بتدبيره ولنا ان شاء الله عودة لهذا الأمر.

يتقون مرضاً فتاكاً بل ﴿واصروا واستكبروا استكباراً﴾ ١١.

وظل نوح عليه السلام (٩٥٠) عاماً يدعو قومه ولم يؤمن معه الا قليل، كأن بهم وراثه عقلية لهذا الكفر؟ ولم يكن فيهم رجل رشيد، يدلهم على الخير، ويوجههم الى طاعة الرسول ويذكرهم بما جعل لهم من المنافع!.. ويسألهم لماذا هذا الصلف المتعجرف من الاستجابة لله وهو من خلقهم وخلق الكائنات كلها!.

ان من الدروس المستفادة من قصة نوح عليه السلام مع قومه ما ينتفع به الداعية الى الله من معرفة الانسان وما فيه من اسباب الرفض والمساكسة والمناكفة! وما يحتاجه الداعية، من سعة الصدر وحسن الخلق، والمدايرة في دعوة الناس لترك الكفر والايمان بالله.

وقد جاء في القرآن: ﴿ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن﴾.. ان على الداعية ان يكشف للناس ان الايمان بالله وعبادته على ما امر وشرع، انما ينفع الناس في دنياهم وفي آخرتهم وانهم في عون من الله وتأييد منه!.

وهذا وعد الله سبحانه وتعالى: ﴿ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ان لا تخافوا ولا تحزنوا